كلمة التحرير

إسلامية المعرفة: مهمة باقية

عبدالحميد أحمد أبو سليمان*

مَرّت قرونٌ عديدة على أزمةِ تدهورِ الأمَّة، وانحطاطِها وتمزُّقِها، ونيْلِ الأعداءِ منها، و لم يَكن نصيبُ جهودِ الإصلاحِ أكثرَ من معالجاتٍ لَمْ تمنعْ استمرارَ التدهورِ الذي أمْسَى تراجعاً وانهياراً، حين برَزَ إلى الساحة مُنافسٌ حضاريٌّ، ملَكَ من المعرفة والقدرة والفعالية والمبادرة، ما لم تعدْ تتحلَّى الأمَّةُ بشيءٍ منه، ولا تملكُ أياً من مقوماته.

وحَاوَلَتْ الأمَّةُ -عَلَى مَدَى القُرُونِ الثلاثةِ الأخيرة- النهوضَ من الكَبْوةِ، واستعادةَ القدرة والعافية. ولكن جهودها اتّسمت بالتخبط، وعدم القدرة على تحديد رؤيتها، فهي ما بين محاكاة للغرب القاهر، أو اجترار لذكرى أطلال التاريخ. واتصفت ثقافة الأمة -خلال هذه الفترة- بالانفصام والانشطار بين ثقافةٍ مدنية أجنبية مُستلبة، وثقافةٍ دينية مُنْبَتَّة عن أسئلة العصر وتحدياته. وفشلت مشاريع الإصلاح المدنية الوافدة في تحريك كوامنِ الطاقة في كيان الأمة، كما فشلت صيحات التقليد التراثية في إعادة بناء قدرات هذه الأمة، وجاءت الرؤى والحلول -في مجملها- سطحيةً تلفيقيةً، تتباهى بالموروث، وتنظر بقصور في الاتجاه الخاطئ، وتلقي اللوم -في رهبة وسلبية وعجز- على الآخر، ولا تَكِلُّ من البحث عن كبوش الفداء.

ومع مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، وإبَّانَ الاستعمار الأوروبي لكثير من بقاع العالم الإسلامي، بدأ تطلعٌ فكري ثقافي يعيد النظر في تشخيص واقع الأمة، وجهود نهوضها، ويبحث عن حلول أكثر عمقاً وجديَّةً لمعالجة تخلفها، وضعف طاقاتها وإمكاناتها، وعدم القدرة على بناء مؤسساتها.

---

* دكتوراه في العلاقات الدولية، رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

وفي هذه الظروف، ومن وسط الألوف من أبناء العالم الإسلامي الذين رحلوا في طلب العلم إلى أوروبا وأمريكا الشمالية، تميَّزت مجموعةٌ من هذا الشباب الإسلامي، الذين جمعوا بين المعرفة العملية والمعرفة الاجتماعية والثقافة الإسلامية، وأخذت تعمل بهمَّة وجديَّة بين صفوف هذا الشباب، لجمع شمله، وحماية هويته، والحفاظ على ولائه للأمة ومنطلقاتها الحضارية. واجتهدت في تشخيص أزمة الأمة، والتأكيد على الخلل الفكري والمعرفي والمنهجي في جهود الإصلاح والتغيير، وكان من البديهي أن يكون مفهوم "الإسلامية" عنواناً جامعاً لهذا العمل، وأن يكون العلم و"المعرفة" موضوعاً له، فكانت فكرة "إسلامية المعرفة."

وإذا كان اتحادُ الطلبة المسلمين في أمريكا الشمالية المحضنَ الأولَ لحركة "إسلامية المعرفة" المعاصرة، كونها حركةً هادفةً للإصلاح الفكري والثقافي، ولبناء العلوم والمعارف الاجتماعية الإسلامية؛ كأساس للتغيير، وتزويد العقل المسلم بالرؤية وبالطاقة، فإنّ جذور حركة "إسلامية المعرفة" أو ما يمكن أن نسميه الإصلاح الفكري، بوصفه عاملاً من عوامل الإصلاح الاجتماعي والحضاري، ترجع-في أصولها البعيدة- إلى الوعي المبكر عند علماء الأمة بالعجز الثقافي، والجمود الفكري الذي تسلل إلى عقل الأمة وثقافتها، ونلمس بواكير هذا الوعي عند أبي حامد الغزالي في كتابَيْه "إحياء علوم الدين" و"تهافت الفلاسفة".

وفي هذه الأجواء المشحونة بالحماسة، والأمل، والحيرة، والصراع، والتخبط بين الحركات، والتيارات المتعارضة المتضاربة، نشأت حركة **"إسلامية المعرفة"** أساساً للإصلاح المنهجي الفكري، الذي يمثل قاعدة الإصلاح الحضاري، وحجر الزاوية والترشيد في كل وجهٍ من وجوه الإصلاح الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي والتربوي، وكان من الطبيعي أن تأتي المرحلة الجديدة للبحث في الأعماق، على يد مجموعة من الشباب المثقف ثقافة مدنية مختلطة بالولاء الإسلامي والمعرفة التراثية ضمن رؤية كلية، فجمعت لها قوة العقيدة، وسعة المعرفة، وواقعية النظرة، وقدرة الأداء. وكان تبلورها وترعرعها بوصفها حركة فكرية، في أرض التحديات

المعاصرة، في أقصى بلاد الغرب، على الرغم من أن بذورها ومنطلقاتها وليـــدة أرض الأمة الإسلامية، وقيمها، وتراثها.

إنّ الجديدَ في مفهوم "إسلاميَّة المعرفة" ماثلٌ في التحديد الواضح لأزمة الأمة، فهذه الأزمة ليست في نقص الموارد، فالأمة غنية بمواردها البشرية والمادية، وليست في نقص القيم والمثل والغايات السامية، فالإسلام وتراثه غنِيٌ بهذه القيم والمثل والغايات السامية، كما أن المحاولات الفاشلة للإصلاح السياسي والاقتصادي المتكئة على الرجـــوع إلى الماضي، أو تقليد الغالب، لم تنقطع، ومع ذلك لم يكن لها -على الرغم من رصـــيدها الغني بالإخلاص- من الأثر إلا المزيد من الإحباط، والتدهور، واتساع الفجوة بـــين حال الأمة وحال أعدائها ومناجزيها. ولذلك كانت رؤية هؤلاء الشباب تتركز في أن أزمة الأمة تكمن في التخلف والغيبة الحضارية، وأنّ فشل جهود الإصلاح راجـــعٌ إلى ضعف جذور المشروع، وضعف الطاقة الفكرية اللازمة لكفاءة أدائه من أجل النهوض بالأمة ومواجهة التحديات، ولذلك فالأزمةُ -في جوهرها- أزمةٌ فكريةٌ، تفرض علينا التعامل مع هذه الأزمة وجهاً لوجه، وبشكل علمي ومنهجي يُصلح الفكر ومناهِجَه، ويتغلَّبُ على وهج الانبهار بقدرات المُناجز الحضاري الطامع، كمـــا يتغلـــب علـــى سلبيات إرث الفصام والجمود، وما خلّفه من تشويه للرؤية الكلية الحضارية الإسلامية؛ حتى يتمكن من بناء الشخصية الإسلامية المعاصرة، ويبني علاقات المجتمع ومؤســـساته الفعَّـــالة، وبغير ذلك فإنّه لا سبيل إلى تجديد طاقة الأمة، وتوفير وسائل النجاح لجهود الإصلاح السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والتربـــوي، والعلمـــي، والـــتقني، والعسكري.

لقد كان من الواضح أنه لا بدّ من إصلاح مناهج الفكر الإســـلامي، واســـتعادة الرؤية الإسلامية الحضارية القرآنية؛ كونها أساساً للإصلاح الفكري، والقضاء علـــى التناقض المفتعل بين الوحي والعقل؛ إذ إنَّ التكامل الحقيقي بين الوحي والفطرة والعقل والبدهيات المنطقية، وسيلةٌ لتحقيق الفهم وبناء الرؤية العلمية للمفـــاهيم الإنـــسانية الحضارية، وللنواميس الكونية.

لقد عانت الأمة جموداً وتدهوراً في معظم مناحي الحياة، ولمدة طويلة، وكان هذا الجمود والتدهور في رؤية الأمة، وفكرها، ونظام حياتها، نتيجةً للكوابح الهائلة التي أحاطت بفكر الأمة خلال قرون من الصراعات، وإرساء الثوابت على ضوء السائد من الموروثات، والمصالح، والأنظمة، والترتيبات، حتى لم يترك ذلك الجمودُ مجالاً للمتغيرات، وأصبحت الأمَّةُ حبيسةَ قيودٍ فكرية ونفسية أورثتها الخضوع. وقد سُلطت على الناس ألوانُ الوعيدِ والتهديد المادي والنفسي لكل من يحاول إعمال العقل ومحاكمة المقولات السائدة على هدى الوحي ومستجدات الواقع. واستسلمت الأمة لكهانة مُقنّعة، سلمت فيها عامةُ الأمة زمام حركتها إلى فئات دينية ومدنية، تحتكر المعرفة لتحقيق مصالحها وترتيباتها؛ فغرقت الأمةُ بعد ذلك في الجهل، والوهم، والخرافة، ومشاعر الرهبة؛ وروح اللامبالاة؛ وانشغل الناس في طلب لقمة العيش، والاقتناع بالفتات في سبيل التشبث بالبقاء، وطفت على السطح -في سلوك الأمة وعلاقتها ومؤسساتها- ألوان من التشويه، والتناقض الذي لا يسهل فهمه، ما لم ندرك العوامل الفكرية والثقافية الكامنة في أساسه وجذوره.

وهكذا جاءت حركة "إسلامية المعرفة" إضافة جديدة متميزة تستكمل جهود الحركات الإصلاحية في المجالات الأخرى، وتدعو إلى فتح الملف الفكري على مصراعيه، ومشاركة الفئة المثقفة المشغولة بالإصلاح، والتعامل مع هذا الملف بشكل جدي وجذري، يجدد في منهج الإصلاح، ويعيد صياغة هذا المنهج، على أساس من رؤية الأمة ومنطلقاتها الروحية الحضارية، ومن واقعها وما تواجهه من تحديات، وما تعانيه من إشكاليات، وما يتوافر لها من إمكانات؛ ليكون ذلك أساساً لمشروع الإصلاح الإسلامي في كل جوانبه.

أكد مفهوم "إسلامية المعرفة" على ضرورة الوعي على مصادر المعرفة الإسلامية وتكاملها، ومحاكمة مقولاتها، وإعادة النظر في فرضياتها، وفهم ثوابتها ومتغيراتها، وإدراك عامل الزمان والمكان في حركة الفكر وتاريخ الأمم. وأكدت "إسلامية المعرفة" كذلك على ضرورة تحرير العقل المسلم من كوابحه، والقضاء على الفصام بين الفكر وحركة المجتمع، وتنقية الثقافة من كل ألوان الإرهاب الفكري، والقضاء على فكر

الوهم والخرافة والشعوذة، وتمكين العقلية العلمية القائمة على تكامل الوحي والفطرة، وإزاحة كل أنواع الكهانة، وتمكين الأمة من الإمساك بزمام مصيرها، وإدارة شؤونها على أسس من المبادئ والثوابت الإسلامية: في التوحيد، والعدل، والمساواة، والأخوة، والشورى، والتضامن.

وهكذا كانت الغايةُ من مفهوم "إسلامية المعرفة" بناءَ الفكر الإسلامي بناءً علمياً منهجياً، محكماً، يتسم بالشمولية والنظرة التحليلية الناقدة، والانضباط العلمي المرتكز إلى سنن الفطرة الكونية؛ لتمكين العقل المسلم من امتلاك القدرة العملية والعقلية النقدية؛ ولتستعيد الأمة عافيتها، وتبني مؤسساتها، وتقضي على جذور الاستبداد والفساد في كيانها، وتحمل بقوة ونجاح مشروع إصلاحها الإسلامي الحضاري العالمي المأمول بإذن الله تعالى.

وبذلك كانت حركة "إسلامية المعرفة" حركة منهجية ناقدة، لا تقف عند إعادة ثقة الأمة بنفسها لتتباهى بتراثها، وتتغنّى بسالف أمجادها والتمترس خلف ذكرياتها، ولا تقف عند حدود التلفيق، والجمع العشوائي الساذج بين الموروث والمستورد، وادّعاء السَّبق والتفوق الموهوم؛ بل كانت دعوة منهجية جادة للتجديد، والمراجعة، والتنقية، وإعادة بناء الأسس، والقضاء على مصادر الانحراف، والتشويه، والجمود؛ لتكون بذلك حركةً حقيقيةً للتجديد والكشف عن سلامة القواعد، ومواجهة علمية صريحة واعية تتسم بالجرأة، وبالصراحة مع الذات؛ لتصحيح المنطلقات، وإعادة بناء العلاقات، وتحرير العقل المسلم، والوجدان المسلم، وحمل الأمة للأمانة وامتلاكها للإرادة حتى تتمكن مجدداً من بناء المشروع الإسلامي الحضاري، الذي يتمتع بمصادره الكلية التي تجمع هداية الوحي وسنن الكون وحقائق الواقع.

إن "إسلامية المعرفة" ليست كتاباً يُكتب فحسب، ولا ندوةً تُعقد، ولا كلمةَ فصل تُنطق، ولكنها مهمةٌ فكريةٌ تبدأ وتبقى وتستمر وتتعمق مع الاقتناع الكامل بمنطلقاتها، وإعمال الفكر ودوام عطائه وإبداعه وتجدده. ومع ذلك فإن مسيرة "إسلامية المعرفة" لا تزال بحاجة إلى ترسيخ القناعة، وإرساء القواعد، وتنقية العوالق. ولا يزال أمامها الشيءُ الكثيرُ، حتى نقول: إنَّ القضيةَ قد اتّضحَ مفهومُها، وسلك

منهجُها، واشتدَّ عُودُها، وأصبح الفكرُ الإسلامي صبغةً لحياة الأمَّة في واقعها المعاصر، وأسهم كل ذلك في امتلاك الأمة للرؤية الإسلامية الصحيحة والقيم السامية والمفاهيم العلمية، وفي بناء الإنسان المسلم عقلاً ووجداناً، على حد سواء.

ولا يزال المطلوب كبيراً؛ لأن تفاقم الأزمات وتواليها على الأمة، وفداحة الهجمة الفكرية والثقافية والتربوية الغربية على الأمة، وعلى مؤسساتها وشبابها، يدفعُ جُلَّ القيادات الإصلاحية، وجلَّ المثقفين والمفكرين، إلى متابعة قضايا الأزمات الآنية، ويعيق مهمة استقطاب جهودهم واهتماماتهم نحو القضية الفكرية الاستراتيجية.

وإذا كانت الأزمةُ الكبرى، التي تعاني منها الأمة، أزمة داخلية؛ كامنةً في ذاتها وفي ضعف إرادتها، وتشتت طاقتها، فإن الانشغال بالمعارك الجانبية ربما يكون استنزافاً للإمكانيات وهدراً للطاقات. فهل تستطيع الأمة أن تعيد بناء استراتيجية عملها، بحيث تعطي الأولوية لجهود الإصلاح الفكري والوجداني للأمة؟ وهل يمكنها أن توظف طاقتها في العمل الجاد لبناء المؤسسات، وتنمية الكوادر المؤهلة للعمل والبناء؛ برؤية إسلامية حضارية أصيلة؟!